الفكر الاقتصادي الطبيعي

أولا- تعريف ومبادئ وخصائص لفكر الاقتصادي للفيزيوقراطيين:

1- التعريف بالمدرسة الطبيعية (Physiocracy):

الفيزيوقراطية مشتقة من كلمتين يونانيتين: physio (الطبيعة) وcracy (الحكم)، وتعني "حكم الطبيعة". وهي مدرسة فكرية اقتصادية نشأت في فرنسا خلال القرن الثامن عشر، أسسها فرانسوا كينيه (François Quesnay) ومفكرون آخرون، تعتقد بأن مصدر الثروة هو الإنتاج الزراعي؛ وتدعو إلى سياسات تتماشى مع القوانين الطبيعية، والفكرة الأساسية هنا هي أن الاقتصاد يعمل وفق "نظام طبيعي" يجب على البشر احترامه واتباعه لتحقيق التناغم والازدهار.

2- مبادئ المدرسة الطبيعية:

الفيزيوقراطية مدرسة فكرية أبرزت أهمية الزراعة والقوانين الطبيعية في تحقيق الازدهار الاقتصادي. وفيما يلي شرح مختصر لهذ ه المبادئ.

- أولوية الزراعة:

أكد الطبيعيون أن الزراعة هي القطاع الوحيد المنتج حقا، واعتقدوا أنها تولد فائضا أطلقوا عليه اسم "المنتج الصافي"، وهو ضروري للاقتصاد، في حين اعتبروا التجارة والتصنيع من قبيل الأنشطة العقيمة. لذا اقترحوا نموذج "المملكة الزراعية" الذي يختلف عن الاقتصادات الصناعية أو التجارية، حيث تكون الزراعة هي حجر الأساس للتنمية والازدهار الاقتصادي؛ وطالبوا بدعمها على نطاق واسع باستخدام أساليب تكنولوجية متقدمة لتحسين ومضاعفة الإنتاج الزراعي.

- النظام الطبيعي:

استندت الفزيوقراطية إلى فكرة "النظام الطبيعي" الذي يوجه الأنشطة الاقتصادية والتفاعلات البشرية، وهو نظام تحكمه قوانين الطبيعة، لذلك فهو نظام عقلاني وأبدي وعالمي، واعتبره الفزيوقراطيون مثاليا للتنظيم الاقتصادي والاجتماعي. واعتقدوا أن سعادة الإنسان وثروته هي نتاج لهذا النظام الطبيعي، حيث أن السياسات الاقتصادية التي تتماشى مع قوانين الطبيعة ستؤدي إلى الانسجام، فعندما يتماشى البشر مع هذا النظام، يحقق المجتمع التناسق والازدهار. يضمن هذا النظام حقوق الملكية والحرية الاقتصادية مع تقليل التدخل الحكومي. وتُعتبر القوانين البشرية مكملة للقوانين الطبيعية.

- فلسفة عدم التدخل (Laissez-faire):

دعا الطبيعيون إلى تقليل تدخل الدولة إلى أدنى حد، مع التأكيد على حرية التجارة (الداخلية والخارجية) والحرية الفردية كعناصر أساسية للرفاه الاقتصادي. كان الفزيوقراطيون من أوائل المدافعين عن مبدأ "دعه يعمل" (الليبرالية الاقتصادية)؛ وطالبوا بضرورة إزالة القيود التجارية والإعانات والاحتكارات.

والمتمعن أكثر في المذهب الطبيعي يجد بأنه يجمع بين الليبرالية الاقتصادية والمحافظة السياسية؛ فقد دعا الطبيعيون الى الحرية الفردية في الأنشطة الاقتصادية، لكنهم أيدوا السلطة المركزية للحكم مفضلين نظاما إصلاحيا لكنه سلطوي.

- ضريبة واحدة على الأرض:

بما أن الأرض هي المورد الوحيد المنتج، يجب أن تكون الأساس الوحيد للضرائب. هذه "الضريبة الواحدة" ستبسط السياسة المالية وتضمن العدالة.

- الملكية الخاصة:

الاعتراف بأهمية الملكية الخاصة كأساس للإنتاجية الاقتصادية والاستقرار.

3- الخصائص الأساسية للفكر الطبيعي:

تتميز المدرسة الطبيعية بخصائص تميزها بوضوح عن باقي المدارس الفكرية، وهي مرتبطة بمبادئها.

-الجدول الاقتصادي (Tableau Économique):

قدم فرانسوا كيناي (الشخصية الرئيسية في المدرسة الفزيوقراطية) الجدول الاقتصادي الذي يوضح دورة الثروة بين الطبقات الاجتماعية المختلفة، وتحديدا الفئات الثلاث: الفئة المنتجة (المزارعون)، الملاك (مالكو الأراضي)، والفئة العقيمة (التجار والصناعيون). ويظهر كيف أن الإنتاج الزراعي يغذي الاقتصاد ويبرز الترابط بين جميع الطبقات. كان هذا تمثيلا مبتكرا للاعتماد الاقتصادي المتبادل، واعتبر مقدمة لنماذج اقتصادية حديثة مثل تحليل المدخلات والمخرجات ونظرية التوازن العام.

- انتقاد الفكر التجاري:

رفض الفيزيوقراطيون أفكار التجاريين التي تنظر الى الثروة من خلال المعادن النفيسة، وتركز على السياسات التجارية (أولا) والصناعية على حساب التنمية الزراعية؛ لقد اعتبروا بأن هذه السياسات تؤدي إلى عدم المساواة وعدم الكفاءة. بدلا من ذلك، دعوا إلى سياسات تزيد الثروة الحقيقية من خلال الإنتاج الزراعي والتبادل الحر.

- المنافسة الحرة والأسعار العادلة:

شجع الفيزيوقراطيون المنافسة الحرة لتحقيق "السعر العادل" الذي يعكس القيمة الحقيقية للمنتجات الزراعية ويضمن الاستقرار الاقتصادي.

- النظام الاجتماعي المنسجم:

اعتقد الطبيعيون في وجود مجتمع طبقي تساهم فيه كل مجموعة في الاقتصاد - حيث يوفر ملاك الأراضي الموارد، ويعمل المزارعون على زراعتها، وتدعم الطبقات الأخرى النظام من خلال التبادل. يتحقق الانسجام من خلال الالتزام بالقوانين الطبيعية.

- التوافق مع الطبيعة: لم تكن أهمية القوانين الطبيعية ذات أبعاد فلسفية فقط، بل امتدت لتشمل السياسات الاقتصادية التي تحترم التوازن البيئي والاجتماعي.

- النهج العلمي في الاقتصاد:

سعى الفزيوقراطيون إلى تأسيس الاقتصاد كعلم من خلال تطبيق أساليب منهجية وعقلانية. لقد ركزوا على دراسة فائض الإنتاج وإعادة الإنتاج الاقتصادي بدلا من الندرة والتخصيص، مما يمثل تحولا عن الفكر الاقتصادي السابق.

ثانيا- الفيزيوقراطيون وآراؤهم:

1- فرانسوا كينيه (1694–1774)**:**

- يُعتبر فرانسوا كينيه مؤسس المدرسة، لقد اعتقد في وجود نظام طبيعي تحكمه قوانين كونية، وهو من أعطى للزراعة مكانتها الجوهرية، وقسّم المجتمع إلى الثلاث طبقات، واعتبر الأنشطة غير الزراعية (الصناعة والتجارة) أعمالا "عقيمة". ثم قدم نموذج الجدول الاقتصادي ليوضح تدفق الثروة بين هذه الطبقات، وقارنه بتدفق الدم في جسم الإنسان، حيث تتدفق الثروة والدخل في الاقتصاد بشكل دائري بين المزارعين (الذين يولدون الفائض) وملاك الأراضي (الذين يستهلكون جزءا من الفائض) والحرفيين والتجار (الذين يعيدون توزيع الفائض دون إضافة قيمة).

- دعا إلى الحرية الاقتصادية (laissez-faire)، مشددا على ضرورة تقليل تدخل الحكومة، باستثناء حماية "النظام الطبيعي" للتفاعلات الاقتصادية.

- لقد اعتقد كينيه بأن فرض ضريبة واحدة على الأراضي هي الطريقة الأبسط والأكثر عدالة، لأن الأرض ببساطة هي المصدر الأساسي للفائض.

2- بيير صامويل دوبونت دي نيمور (Pierre Samuel du Pont de Nemours)**:**

صاغ دوبونت (1739–1817) مصطلح "الفيزيوقراطية" وكان من أكبر المدافعين عن نشر سياساتها. ساهم في وضع الإطار النظري للأفكار الفيزيوقراطية، وركز على أهمية نشرها من خلال كتاباته؛ دعا إلى

إصلاحات تعتمد على تنمية الزراعة والتجارة الحرة، وكان يعتقد بضرورة توافق سياسات الدولة مع مبادئ النظام الطبيعي.

3- آن روبير جاك تورغو (Anne Robert Jacques Turgot)**:**

تأثر تورغو (1727–1781) بالفيزيوقراطيين ووسع أفكارهم من خلال التأكيد على فوائد الأسواق الحرة وأهمية حقوق الملكية. تميزت مساهماته بما يلي:

- رأى أن الزراعة هي المحرك الأساسي للثروة، لكنه عارض تركيز الفيزيوقراطيين الضيق على الزراعة فقط.

- انتقد التدخل المفرط للدولة في الشؤون الاقتصادية.

- أقر بدور العمل البشري ورأس المال في الإنتاج، مما ساهم في صياغة نظريات العوائد المتناقصة والقيمة المبنية على المنفعة.

4- ماركيز دي ميرابو (Marquis de Mirabeau)**:**

تعاون ميرابو (1715–1789) مع كينيه ثم خلفه كقائد بارز للفيزيوقراطيين، وكتب بشكل واسع لنشر هذا الفكر، مثل مؤلفه "صديق الإنسانية" الذي روج فيه للمبادئ الفيزيوقراطية. من أهم مساهماته: دعم فكرة النظام الطبيعي المتناسق، الترويج لسياسات الضريبة الواحدة، التركيز على أهمية الأرض والزراعة في خلق الثروة.

5- غيوم فرانسوا لو ترون Guillaume-François Le Trosne (1728–1780) **ونيكولا بودو** Nicolas Baudeau (1730–1792)**:**

كانا من المؤيدين الأقوياء لأفكار كينيه. كتب لو ترون عن دور الملكية والتجارة الحرة، بينما دعم بودو استخدام الجدول الاقتصادي كأداة لتحليل الاقتصاد.

ثالثا- نقد فكر الطبيعيين:

المدرسة الفيزيوقراطية قدمت إسهامات بارزة في تطور الفكر الاقتصادي من خلال المساهمة في تأسيس علم الاقتصاد السياسي وتقديم "الجدول الاقتصادي" كأداة لتحليل تداول الثروة. ركزت على الزراعة كمصدر رئيسي للثروة الوطنية، وأدخلت مفهوم "النظام الطبيعي" الذي دعا إلى تقليل تدخل الحكومة ودعم فكرة عدم التدخل (laissez-faire). لقد ألهمت أفكارها نماذج اقتصادية حديثة مثل التوازن العام وتحليل المدخلات والمخرجات؛ كما دعت إلى التجارة الحرة واعتبرت تكوين رأس المال واستثماره في الزراعة مفتاحا للتنمية الاقتصادية، مؤثرة بشكل عميق في الفكر الاقتصادي الحديث، خاصة لدى آدم سميث.

ورغم هذه الاسهامات المهمة، الا أن هذا الفكر لم يسلم من الانتقاد، نلخص ذلك على النحو التالي:

- **الإفراط في التركيز على الزراعة:** انتقد النقاد الفيزيوقراطيين لأنهم بالغوا في أهمية الزراعة، وأهملوا مساهمات الصناعة والتجارة، التي تنتج أيضًا قيمة مضافة.

- **نموذج اقتصادي محدود:** اعتُبر *الجدول الاقتصادي* بسيطا جدا وغير قادر على تفسير تعقيدات الاقتصاد الصناعي. كما أنه فشل في التعرف على الاعتماد المتبادل بين القطاعات الاقتصادية المختلفة خارج الزراعة.

- **عدم فعالية الضريبة الواحدة:** تعتبر الضريبة الواحدة غير عملية ومبسطة بشكل مفرط، وفي التركيز عليها تجاهل لمصادر الدخل الأخرى.

- **النظام الطبيعي المثالي:** انتقد مفهوم النظام الطبيعي باعتباره منفصلًا عن الواقع، فالأفراد والحكومات لا يتصرفون دائما بعقلانية.

- **مقاومة التصنيع:** من خلال التركيز على الزراعة عارض الفيزيوقراطيون التصنيع الناشئ، الذي أصبح لاحقا محركا رئيسيا للنمو الاقتصادي في أوروبا.

- **تطبيق محدود:** كان إطار الفيزيوقراطية ملائما بشكل أساسي للاقتصاد الزراعي في فرنسا في القرن الثامن عشر، لكنه عجز عن التكيف مع الاقتصادات الديناميكية والمتنوعة في المناطق الأخرى والفترات اللاحقة.

ملخص المحاضرة:

نشأ الفكر الفيزيوقراطي في القرن الثامن عشر بفرنسا، مستندا إلى مفهوم "النظام الطبيعي"، الذي يعبر عن قوانين طبيعية تنظم الاقتصاد وتدعو إلى تقليل تدخل الدولة. ركز الفيزيوقراطيون على الزراعة كقطاع منتج رئيسي يولد فائضا اقتصاديا، وهو ما اعتبروه الأساس الحقيقي للثروة، بينما اعتبروا الصناعة والتجارة أنشطة عقيمة. قدم فرانسوا كينيه (مؤسس المدرسة) "الجدول الاقتصادي"، الذي وصف تدفق الثروة بين الطبقات الاجتماعية المختلفة مثل المزارعين ومالكي الأراضي والحرفيين. كما دعت المدرسة إلى سياسات مثل التجارة الحرة وفرض ضريبة واحدة على الأراضي، مع تعزيز حقوق الملكية كعنصر أساسي لتحقيق الاستقرار والازدهار. رغم تأثيراتها الكبيرة على الاقتصاد السياسي الحديث وأفكار آدم سميث، تعرضت الفيزيوقراطية لانتقادات واسعة بسبب تركيزها المفرط على الزراعة وإهمالها الصناعات الناشئة، وتبنيها مفاهيم مبسطة مثل الضريبة الواحدة والنظام الطبيعي، مما جعلها غير قادرة على مواكبة تعقيدات الاقتصاد الصناعي المتطور. ومع ذلك، ساهمت هذه المدرسة في تشكيل الفكر الاقتصادي الحديث وتأسيس مبادئ التحليل الاقتصادي.